# اليهود في القرآن الكريم

حسين محمد قاسم(1)

**ذكر القرآن الكريم بني إسرائيل في كثير من سوره، ولكن سورة الإسراء تميزت بالحديث عن إفسادهم في الأرض مرتين، وعن تسليط أقوام عليهم لمعاقبتهم على كل إفساد.**

اختلف المفسرون في تحديد زمن الإفسادين والقوم الأشداء المُسَلَّطين عليهم في كل مرة، فرأى قدماء المفسرين أن الإفسادين قد حصلا في أزمنة ما قبل الإسلام من تاريخ بني إسرائيل، ثم اختلفوا في تعيين هذين الإفسادين، وتحديد المعنيّين بالقوم أولي البأس الشديد، الذين سلطهم الله عليهم في المرتين، بينما يتجه علماء التفسير في العصر الحديث إلى أن الإفسادين قد حدثا في زمن الدولة الإسلامية، ثم اختلفوا أيضًا في تحديد زمن الإفسادين، ومن الذين سُلطوا عليهم، فمن العلماء من يرى أننا اليوم في زمن الإفساد الثاني، بل هناك من يعتبر أن علو الصهاينة اليوم هو الإفساد الأول، وأما الإفساد الثاني فسوف يحدث في مستقبل الأيام، وبسبب هذا الاختلاف الكبير، فإنني سأذكر أقوالهم ثم أناقشها بما يخدم الغرض من هذا البحث، وأسأل الله تعالى العون والسداد، فهو الموفق إلى سبيل الرشاد.

**– المبحث الأول: أقوال القدامى من علماء التفسير**

حدثنا القرآن الكريم عن مراحل تاريخ بني إسرائيل بشكل مفصل، فلا يكاد يخلو جزء من القرآن من ذكر قصة عنهم، فمرة يذكرهم بالمدح كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(2)، ومرة أخرى يذمهم ومنها قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾(3).

- **المطلب الأول: بنو إسرائيل في سورة الإسراء**

بدأت سورة الإسراء الحديث عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في رحلته إلى المسجد الأقصى، وعن كليم الله موسى ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾(4)، أي: يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة تشبهوا بأبيكم فإنه كان من الشاكرين، ثم يبدأ الحديث عن بني إسرائيل بقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(5)، أي إن الله أخبرهم وأعلمهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون مرتين، ثم يعلون علوًا كبيرًا.

وقبل أن أبدأ بعرض آراء المفسرين وأقوال أهل العلم في تحديد وقت الإفسادين لا بدّ من التنبيه إلى أنه يجب على كل مسلم الرجوع إلى كتب التفسير لمعرفة معاني الآيات القرآنية، ولا مانع من إعمال



الذهن في استنباط الفوائد منها إن كان من أهل القدرة على ذلك، كما يجب على كل مسلم تجنب تنزيل الآيات على وقائع معينة، فليس لأحدٍ الجزم بأن ما يريده الله تعالى في آية معينة هو هذا الحادث المحدد، دون بينة أو دليل على ذلك التخصيص، ومخالفة هذا الأمر كانت سببًا في الوقوع في الخطأ في فهم الآية، أو تنزيل الحادثة عليها، فليتنبه كل باحث لهذه الأمور، وليكن مرجعه في فهم كتاب الله تعالى ما دوّنه أئمة التفسير الثقات في كتبهم، وليعلم أنه كلما رأى حدثًا يطابق ما فهمه من الآية القرآنية فقد يأتي حدث أكثر مطابقة عليها. ومن هنا فإنني رأيت محاولات كثيرة للجزم بحادثتي الإفساد الأول والثاني من بني إسرائيل، وللأسف فقد كان الاعتماد في حوادث هذين الإفسادين على كتب بني إسرائيل أو على أحاديث موضوعة.

وأبدأ برأي **الإمام الطبري**: فقد روى في خبر عن ابن عباس أن الله عهد إلى بني إسرائيل في التوراة لتفسدن في الأرض مرتين، فكان أول الفسادين قتل زكريا، فبعث الله عليهم ملك النبط وكان يدعى ضحابين، فبعث الجنود من أهل فارس، فهم أولو بأس شديد، فتحصنت بنو إسرائيل، وخرج فيهم بختنصر يتيمًا مسكينًا، إنما خرج يستطعم، وتلطف حتى دخل المدينة، فأتى مجالسهم فسمعهم يقولون: لو يعلم عدونا ما قذف في قلوبنا من الرعب بذنوبنا ما أرادوا قتالنا، فخرج بختنصر حين سمع ذلك منهم، واشتد القيام على الجيش فرجعوا، وذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾(6)، ثم إن بني إسرائيل تجهزوا فغزوا النبط فأصابوا منهم، واستنقذوا ما في أيديهم، فذلك قوله ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾(7)، وفي رواية أخرى قال: كان إفسادهم الذي يفسدون في الأرض مرتين قتل زكريا ويحيى، فسلط الله عليهم ملكًا من ملوك فارس من قتل زكريا، وسلط عليهم بختنصر من قتل يحيى(8).

وقد أجاد ابن كثير: في تعليقه على ما قيل في تعيين هٰذين الإفسادين، فقال: "اختلف المفسرون من السلف والخلف في هؤلاء المسلَّطين عليهم: من هم؟ فعن ابن عباس وقتادة(9): إنه جالوت الجَزَرِيّ وجنوده، سُلِط عليهم أولا، ثم أديلوا عليه بعد ذلك، وقتل داودُ جالوتَ؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، وعن سعيد بن جبير(10): أنه مَلِك الموصل سنجاريب وجنوده، وعنه أيضًا وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل"(11).

ثم تابع ابن كثير يقول: "وقد روى ابن جرير في هذا المكان حديثًا أسنده عن حذيفة(12) مرفوعًا مطولا، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أرَ تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما

هو موضوع، من وضع بعض زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا، ونحن في غُنْيَة عنها، ولله الحمد، وفيما قص الله تعالى علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم، وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم، وأذلهم، وقهرهم، جزاءً وفاقًا"[13].

فهذه الروايات التي ذكرها الطبري، في تحديد زمن الإفسادين، والقوم الذين سلطوا عليهم، وقد جزم أنها حصلت قبل بعثة نبينا محمد، لكن كما بيَّن ابن كثير لا يصح من هذه الروايات شيء؛ لذلك فإنه لا يصح الاعتماد عليها في تحديد زمن الإفسادين، ولا في تحديد القوم الذين سُلِّطوا على بني إسرائيل.

أما **الإمام الرازي**: فقال: "إعلم أنه تعالى لما ذكر إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم، وبأنه جعل التوراة هدى لهم، بيَّن أنهم ما اهتدوا بهداه، بل وقعوا في الفساد فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[14]، القضاء في اللغة عبارة عن قطع الأشياء عن إحكام، أي أعلمناهم وأخبرناهم بذلك وأوحينا إليهم. وقولهم ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ يعني أنه يكون استعلاؤكم على الناس بغير الحق استعلاءً عظيمًا؛ لأنه يقال لكل متجبر: قد علا وتعظم. ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾[15]، يعني إذا جاء وعد الفساد في المرة الأولى أرسلنا عليكم قومًا أولي بأس شديد، ونجدة وشدة، وخلينا بينكم وبينهم خاذلين إياكم، واختلفوا في أن هؤلاء العباد من هم؟ قيل إن بني إسرائيل عظموا وتكبروا، واستحلوا المحارم، وقتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء، وذلك أول الفسادين، فسلط الله عليهم بختنصر، فقتل منهم أربعين ألفًا ممن يقرأ التوراة، وذهب بالبقية إلى أرض نفسه، فبقوا هناك في الذل إلى أن قيض الله ملكًا آخر غزا أهل بابل، واتفق أن تزوج امرأة من بني إسرائيل، فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد بني إسرائيل إلى بيت المقدس ففعل، وبعد مدة قامت فيهم الأنبياء، ورجعوا إلى أحسن ما كانوا، فهو قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، أي أهلكنا أعداءكم ورددنا الدولة والقوة عليكم[16]. وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾[17]، وعد الآخرة هو وعد المرة الأخيرة، وهو إقدامهم على قتل زكريا ويحيى، فبعث الله تعالى عليهم بختنصر البابلي المجوسي أبغض خلقه إليه فسبى بني إسرائيل وقتل وخرب بيت المقدس. قال الواحدي: التواريخ تشهد بأن بختنصر كان قبل وقت عيسى، وقبل وقت يحيى وزكريا بسنين متطاولة، ومعلوم أن الملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء ملك من الروم يقال له: قسطنطين الملك[18].

أما **القرطبي** فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أولى المرتين من فسادهم



﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾[19]، هم أهل بابل، وكان عليهم بختنصر في المرة الأولى حين كذبوا إرميا وجرحوه وحبسوه، قاله ابن عباس وغيره، وقال قتادة: أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولو بأس شديد. وعن مجاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرًا[20].

- **المطلب الثاني: مناقشة آراء المتقدمين من علماء التفسير**

بعد هذا العرض لما جاء في كتب التفسير القديمة، وجدناها جميعًا تبيّن أن إفسادَيْ بني إسرائيل في الأرض قد حدثا قديمًا، وربما مال المفسرون السابقون إلى هذا الرأي لعدة أسباب، أهمها أنهم ما كانوا يتوقعون من بني إسرائيل المعروفين بأنهم مستضعفون مشردون في العالم، أن يكون لهم شأن وقوة وعلو بعد الذي حدث معهم سابقًا، لكن التاريخ يشهد أن بني إسرائيل ما كانوا في علو حقيقي كبير كما هم في وقتنا، وهي علامة رئيسة أريد أن أقف عندها في مناقشة أقوال المفسرين، فإن المتتبع لتاريخهم يجد أن العلو الموصوف بأنه كبير لم يحصل، فالعلو الذي نشهده اليوم بسيطرة اليهود عالميًا على المال والإعلام والسياسة بحيث لو استصرخ واحد منهم في أقصى الأرض، لوجد عشرات الآلاف ينتصرون له. وإذا كان هذا الشرط الوارد بقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ غير متحقق، فإن الحكم بوقوع الإفسادين في الماضي يكون غير صحيح. ثم إن قوله: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾[21] يؤكد هذا الرأي. والأرض المقصودة هنا هي الشام.

والحقيقة التي ينبغي الوقوف عندها هي الواقع الذي نعيش من إفساد حقيقي عظيم، وقوة وعلوّ، وأنهم قد أُمِدّوا بالأموال والبنين، وهم أكثر نفيرًا، أي قدرة على الحرب، يعاونهم أناس كثيرون. وهذا لن يدوم؛ لأنه محكوم بوقت بإنهاء هذا الإفساد، وقد وصفه الله بالآخر، ما يشير إلى أنه لا إفساد بعده، وقد جاء في معرض الحديث عن إنهاء الإفساد الثاني قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فكان الوصف بالآخرة، وهي المرة الثانية والأخيرة. وبغض النظر عن المرة الأولى، فالذي يعنينا أن اليهود لم يعلوا من قبل كما هم الآن، فلا يمكن أن يكون إفسادهم اليوم هو مرة ثالثة، فالوصف بالعلو الكبير جاء مع الإفسادين: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، ومن هنا، فإن الذي نعيشه اليوم يحتمل أن يكون الإفساد الأول أو الإفساد الثاني والأخير.

إن المناسب لما جاء في شأن ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ في أول السورة في الحديث عن آخر الإفسادين، وفي آخر السورة حيث جَمْع اليهود لفيفًا، ينبغي أن يكون واحدًا متناسقًا، فهم قد أفسدوا في الأرض، وعلوا علوًا كبيرًا فيها كلها، وليس فقط في فلسطين أو ما بين المسجدين؛ الحرام والأقصى، المذكورين في قصة الإسراء، ولعل الموضع الأخير المتحدث عن الطلب منهم أن يسكنوا

الأرض، حتى إذا جاء وعد الآخرة جاء بهم لفيفًا، فهو إخبار عن جمعهم في الأرض المقدسة، وقد حصل هذا مع السماح لهم بالهجرة إلى فلسطين، ولعل مساعيهم الآن بشأن يهودية الدولة، ومحاولتهم تهجير الفلسطينيين من ديارهم من جديد، علامة على الطمأنينة التي يسعون إليها في تيسير هجرة المزيد، إذ يعيش ثلثا اليهود خارج فلسطين، والعجيب أن من معاني ﴿لَفِيفًا﴾ الجمع الكبير المختلط من كل نوع. وهذا منطبق على اليهود حين يجتمعون في أرض فلسطين؛ من قبائل شتى، وأجناس مختلفين، من عرب وعجم، أوروبيين وأميركيين.. وهكذا. ولا يعني جمعهم أن يأتي كل يهودي إلى فلسطين، فلعل المقصود هو غالبهم، وإلا ففي حديث المسيح الدجال عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ، سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ»[22]، ومن المؤكد أن يكون غيرهم هنا وهناك، بل يوجد من الفرق اليهودية من هم ضد إقامة الدولة، إذ قيامها يعني هلاك بني إسرائيل وإنهاء وجودهم، تمامًا كما نص القرآن على ذلك. وسواء أكان هذا هو الوعد الأول أم الثاني، فإن المطلوب منا الوعي والفهم والتصديق والعمل. فالذي نعتقده اعتقادًا جازمًا أن نهاية بني إسرائيل هي قريبة، ولا يمكن أن يبقوا في هذا التمرد والعتو والعلو والنفاق العالمي، ولا بد في لحظة من إرادة حقيقية لهذه الأمة تنتصر للحق، وتملك قرارها وتنهض من كبوتها، وتزيل هذا الكيان الغاصب لفلسطين.

### – المبحث الثاني: رأي المتأخرين من علماء التفسير في الإفسادين

كما اختلف القدامى من علماء التفسير في تحديد زمن الإفسادين والقوم المسلطين عليهم، فإن المتأخرين من المفسرين اختلفوا أيضًا في تحديد زمن الإفسادين كذلك، فمنهم من ذهب إلى ما ذهب إليه أسلافهم دون أي اجتهاد منهم، ومنهم من اجتهد في تحديد الإفسادين، وسوف أنقل أقوالهم ثم أناقشها كما فعلت مع السابقين، والله الموفق إلى سواء السبيل.

#### • المطلب الأول: نقل آراء المتأخرين

جاء في **روح المعاني**: واختُلِف في تعيين هؤلاء العباد، فعن ابن عباس وقتادة هم جالوت الجزري وجنوده، وقال ابن جبير وابن إسحاق[23]: هم سنجاريب ملك بابل وجنوده، وقيل هم العمالقة، وقيل: هو بختنصر وجنوده[24]. وتعقبه السهيلي[25] بأنه لا يصح، لأن قتل يحيى بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبل عيسى بزمن طويل، وقيل: الإسكندر وجنوده، وتعقبه أيضًا لأن بين الإسكندر وعيسى نحوًا من ثلاثمائة سنة، ثم قال: لكنه إذا قيل إن إفسادهم في المرة الأخيرة بقتل شعيا، جاز أن يكون المبعوث عليهم بختنصر ومن معه؛ لأنه كان حينئذ حيًا، وروي عن عبد الله بن الزبير بأن الذي غزاهم ملك خردوش، وتولى قتلهم على دم يحيى قائد له فسكن، وفي بعض الآثار أن صاحب الجيش دخل مذبح قرابينهم فوجد فيه دمًا يغلي فسألهم، فقالوا دم قربان لم يقبل منا. فقال: ما صَدَقْتموني، فقتل عليه ألوفًا منهم



فلم يهدأ الدم، ثم قال: إن لم تصدقوني ما تركت منكم أحدًا، فقالوا: إنه دم يحيى فقال: بمثل هذا ينتقم ربكم منكم، ثم قال: يا يحيى قد علم ربي وربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى قبل أن لا أبقي منهم أحدًا فهدأ... ويكون بين هذا البعث والبعث الأول على القول بأن المبعوث بختنصر وأتباعه مدة متطاولة، ففي بعض التواريخ أن قتل الإسكندر دارا بعد بختنصر بأربعمائة وخمس وثلاثين سنة، وبعد مضي أكثر من ثلاثمائة سنة من غلبة الإسكندر ولد المسيح، ولا شك أن قتل يحيى بعد الولادة بزمن، والبعث بعد القتل كذلك، فيكون بين البعثين ما يزيد على سبعمائة وخمس وثلاثين سنة. والذي ذهب إليه اليهود أن المبعوث أولا بختنصر، وكان في زمن آرميا، وقد أنذرهم مجيئه صريحًا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام، فحبسوه في بئر وجرحوه. وكان تخريبه لبيت المقدس في السنة التاسعة عشرة من حكمه، وبين ذلك وهبوط آدم ثلاثة آلاف وثلثمائة وثمانٍ وثلاثين سنة، وبقي خرابًا سبعين سنة، ثم إن أسبيانوس قيصر الروم وجّه وزيره طوطوز (طيطوس) إلى خرابه، فخربه سنة ثلاثة آلاف وثمانمائة وثمانية وعشرين، فيكون بين البعثين عندهم أربعمائة وتسعون سنة، وتفصيل الكلام في ذلك في كتبهم، والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، ونعم ما قيل: إن معرفة الأقوام المبعوثين بأعيانهم، وتاريخ البعث ونحوه، مما لا يتعلق به كبير غرض، إذ المقصود أنه لما كثرت معاصيهم سلط الله تعالى عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى، وظاهر الآيات يقتضي اتحاد المبعوثين أولا وثانيًا[26].

وقد جاء في كتاب " **في ظلال القرآن**": قضى الله لبني إسرائيل في الكتاب الذي آتاه لموسى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين، وأنهم سيعلون في الأرض المقدسة ويسيطرون، وكلما ارتفعوا فاتخذوا الارتفاع وسيلة للإفساد سلط عليهم من عباده من يقهرهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾، فهذه هي الأولى، يعلون في الأرض المقدسة، ويصبح لهم فيها قوة وسلطان، فيفسدون فيها، فيبعث الله عليهم عبادًا من عباده أولي بأس شديد، وأولي بطش وقوة، يستبيحون الديار، ويروحون فيها ويغدون ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾، لا يخلف ولا يكذب[27]. حتى إذا ذاق بنو إسرائيل ويلات الغلب والقهر والذل؛ فرجعوا إلى ربهم، وأصلحوا أحوالهم، وأفادوا من البلاء المسلط عليهم. وحتى إذا استعلى الفاتحون وغرتهم قوتهم، فطغوا هم الآخرون وأفسدوا في الأرض، أدال الله للمغلوبين من الغالبين، ومكّن للمستضعفين من المستكبرين ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، ثم تتكرر القصة من جديد، وقبل أن يتم السياق بقية النبوءة الصادقة، والوعد المفعول، يقرر قاعدة العمل والجزاء ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، القاعدة التي لا تتغير في الدنيا ولا في الآخرة؛ والتي تجعل عمل الإنسان كله له، بكل ثماره ونتائجه، وتجعل الجزاء ثمرة

طبيعية للعمل ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ ولقد صدقت النبوءة ووقع الوعد، فسلط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة، ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض، ودمر ملكهم فيها تدميرًا[28].

ثم يختم الموضوع بقوله: "ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها، ثم عادوا إلى الإفساد فسلط عليهم عبادًا آخرين، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم هتلر، ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة "إسرائيل" التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات، وليسلطنَّ الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقًا لوعد الله القاطع"[29].

- **المطلب الثاني: مناقشة آراء المفسرين في العصر الحديث**

تبين من خلال سرد آراء المفسرين في العصر الحديث أنهم اختلفوا في تحديد الزمن الذي حدث فيه العلو الأول ثم الثاني، كما اختلف القدامى من قبل، ولم يستطع عالم قديمًا أو حديثًا أن يثبت لبني إسرائيل نوعًا من العلو في ما مضى، ثم لم يستطع العلماء أن يتفقوا على تحديد من هم المسلطين على بني إسرائيل، ومن أجل إثراء البحث أنقل رأي الدكتور طارق السويدان حيث قال: "قرأت كثيرًا في كتب التفسير التي تبحث في معنى هذه الآيات، ولكني لم أقع منها على ما يقنع المرء، وخصوصًا أنها لا تنسجم مع التسلسل التاريخي لليهود، فمعظم المفسرين يعتبر أن علو بني إسرائيل في الأرض قد حصل مرة ولم يحصل المرة الأخرى، ويعتبر المرة الأولى هي علوهم في زمن الملك البابلي (نبوخذ نصر)، لكن ذلك مخالف للسياق القرآني والسياق التاريخي، وفي اعتقادي الشخصي أن كلا المرتين من علو بني إسرائيل لم تحدثا حتى وقتنا الحالي، وذلك لعدة أسباب نبينها في التالي:

1- الملك البابلي نبوخذ نصر لم يكن من عباد الله، فقد كان كافرًا، والله سبحانه يقول في الآية: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾، ويقول بعدها مباشرة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا يدل بوضوح على أن الذين يغلبون اليهود في المرة الأولى هم أنفسهم الذين سيدخلون عليهم المسجد مرة ثانية، ونبوخذ نصر لم يدخل المسجد مرة ثانية، فلا يمكن تفسير المرة الأولى به.

2- فسر بعض الناس الدخول الأول بأنه دخول عمر بن الخطاب، وهذا منافٍ تمامًا للصواب، فإن الخليفة العادل عندما دخل القدس لم يكن فيها يهود، وإنما دخل على النصارى.

3- لكنني أرى – والله تعالى أعلم – أن المرة الأولى هي التي نعيشها اليوم، وهي العلو الأول، وسيأتي على دولة اليهود هذه عباد لله يخرجونهم من فلسطين، غير أن اليهود سيتجمعون وينصرهم العالم ويمدهم بالأموال، وينصرهم اليهود المنتشرون في باقي العالم فيكونون أكثر نفيرًا بالنصرة العالمية لهم فينتصرون علينا، يقول الله عز وجل: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ



بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، وبعدها يأتي وعد الآخرة أي المرة الثانية، والتي سنتغلب فيها نهائيًا على اليهود ونخرجهم إلى غير رجعة من الأرض المقدسة، يقول تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾، أي ما بناه اليهود سيدمر تدميرًا.

4- جاء في أحاديث أخرى إشارة إلى معركة فاصلة تقوم مع اليهود منها الحديث المشهور: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»[30].

وعلى ذلك فإني أرى أن هذا الذي نعيشه هو العلو الأول لبني إسرائيل، ثم تقوم دولة المسلمين الملتزمين بطردهم من القدس، وليس بالضرورة كل فلسطين، فيأتيهم الدعم العالمي من بني إسرائيل في العالم، ومن الدول العظمى فيكونون جيشًا أقوى من الجيش الإسلامي، ويعيدون احتلال القدس، ولكن المؤمنين يتجمعون مرة أخرى ويهزمونهم الهزيمة النهائية، والتي تخرجهم من القدس وفلسطين[31].

أقول وبالله التوفيق: بعد استعراض أقوال المفسرين قديمًا وحديثًا، تبين أن كل عالم منهم كان يحاول أن يحصل على تفسير لحادثتي الإفساد لبني إسرائيل بناء على ما سبق زمنه من أحداث، ويحاول أن ينزل معاني الآيات على الواقع الذي يعيشه، ومنهم من لجأ إلى الأخذ من روايات بني إسرائيل، وكما هو معلوم فإننا لا نستطيع أن نصدق ما جاء في رواياتهم لاحتمال أنها مما حرفوه، ولا يوجد أي مستند علمي يثبت صحة ما يقولون، كما أن المناقشة السابقة لأقوالهم بينت أن هذه الأقوال لا تتوافق مع الحقائق التاريخية الثابتة، وبالتالي فإن هذه الأقوال مردودة، كما أن السياق التاريخي يثبت أن بني إسرائيل لم يحصل لهم علو من قبل مثل العلو الموجود اليوم، والآية تقول: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ وهذا يؤكد أن علو بني إسرائيل اليوم هو العلو الأول، أضف إلى ذلك أن المفسرين قديمًا وحديثًا، اختلفوا في تعيين الذين سُلطوا على بني إسرائيل في المرتين، ورغم أن الله تعالى قد حدد أن الذين يسلطون على بني إسرائيل سيكونون من المؤمنين بقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾، والذين ذكرهم علماء التفسير ليسوا من المؤمنين، وإنما كانوا كفارًا، إلا ما ذكر من أن المسلمين مع النبي صلى الله عليه وسلم قد حاربوا اليهود في المدينة المنورة وأجلوهم منها، ولكن لم يكن ليهود المدينة أية قوة أو علو، بينما القرآن يذكر: ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، إذن فالذي حدث في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من إجلاء اليهود من المدينة ليس هو المقصود حسب السياق القرآني، فلا يبقى إلا أن نقول بأن علو بني إسرائيل اليوم هو العلو الأول، ونحن ننتظر أن يظهر عباد الله الذين يؤهلون ليجوسوا خلال الديار، وعسى أن يكون قريبًا.

وأما العلو الثاني فإني أرى والله أعلم أنه سيكون في آخر الزمان، عند ظهور الدجال الذي بينت الأحاديث أنه سيجوب العالم في أربعين يومًا، وستتبعه كنوز الأرض، وأول من يكون من أنصاره هم اليهود، فيعيثون في الأرض فسادًا مع الدجال، ويتعرض المؤمنون لبلاء عظيم، لا يستطيعون مواجهة الدجال وأعوانه من يهود، إلى أن يأذن الله بنزول المسيح ويقتل الدجال في مدينة اللد في فلسطين، وينتهي العلو الثاني لليهود والله أعلم.

وفي كل الأحوال إذا كان علو الصهاينة اليوم ليس الأول ولا الثاني، وإذا كان زمن الإفسادين قد مضى كما مر في أقوال المفسرين، فإن الله تعالى قد ختم موضوع العلو بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾[32]، فسنة الله تعالى ماضية في تسليط عباد الله المؤمنين على اليهود عند إفسادهم، فنرجو أن يبعث الله تعالى عباده لإنهاء إفساد اليهود وعلوهم في فلسطين.

***

## الهوامش

[1]- **باحث فلسطيني من مواليد لبنان عام 1961م، دكتور في أصول الفقه، مدرس في كلية الدعوة، وفي جامعة الجنان.**

[2]- الجاثية: 16.

[3]- الأعراف: 167.

[4]- الإسراء: 3.

[5]- الإسراء: 4.

[6]- الإسراء: 5.

[7]- الإسراء: 6.

[8]- جامع البيان في تفسير القرآن: 17/8.

[9]- **قتادة:** هو قتادة بن دعامة، أبو الخطابي السدوسي البصري، مفسر حافظ، قال الإمام أحمد: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأسًا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب، وقد يدلس في الحديث، مات في الطاعون بالبصرة سنة 117هـ. الأعلام: 189/5.

[10]- **ابن جبير:** هو سعيد بن جبير الأسدي بالولاء الكوفي، أبو عبد الله، تابعي، كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل، من موالي بني والبة بن الحارث من بني أسد، أخذ العلم عن ابن عباس وابن عمر، ثم كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول: أتسألونني وفيكم ابن الدهماء؟ يعني سعيد. قتله الحجاج بواسط سنة 95هـ، قال الإمام أحمد: قتل الحجاج سعيدًا وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه. سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1417هـ، 321/4 وما بعدها بتصرف.

[11]- تفسير القرآن العظيم: 1347/3.

[12]- **حذيفة بن اليمان:** هو حذيفة بن حسل ويقال: حسيل بن جابر، واليمان لقب حسل، أبو عبد الله العبسي، وهو صاحب سر رسول الله، وكان يسأل النبي عن الشر ليتجنبه، توفي بعد مقتل عثمان بأربعين ليلة. أسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن محمد الجزري ابن الأثير، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1418هـ، 442/1 بتصرف.

[13]- تفسير القرآن العظيم: 1348/3.

[14] - الإسراء: 4.

[15] - الإسراء: 5.

[16]- التفسير الكبير: 156/20.

[17] - الإسراء: 7.

[18]- تفسير القرآن العظيم: 158/20 - 159.

[19]- الإسراء: 5.

[20]- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ - 2006م، 13/ 20 - 21.

[21]- الإسراء: 104.

[22]- رواه مسلم في صحيحه: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال، رقم 2944، 2266/4.

[23]- **ابن إسحاق:** هو محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرخي العرب من أهل المدينة، له السيرة النبوية، وكتاب الخلفاء، توفي سنة 151هـ. تذكرة الحفاظ: 172/1.

[24]- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: محمود الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 17/15.

[25]- **السهيلي:** هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمي السهيلي، عالم باللغة والسير، ضرير، عمي وعمره 17 سنة، ونبغ فاتصل خبره بصاحب مراكش، فطلبه إليها وأكرمه، فأقام يصنف كتبه إلى أن توفي بها سنة581هـ، من كتبه: الروض الآنف، والتعريف والأعلام في ما أبهم من الأسماء والأعلام، والإيضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين. الأعلام: 313/3.

[26]- روح المعاني: 15/ 20 21.

[27]- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط7، 1391هـ، 306/5.

[28]- المرجع نفسه: 307/5. بتصرف.

[29]- المرجع نفسه: 308/5.

[30]- رواه مسلم في صحيحه: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء، رقم 2922، 2239/4.

[31]- دنيا الوطن: رام الله، 2014/7/26م.

[32]- الإسراء: 8.

## المصادر والمراجع


- القرآن الكريم
- أسد الغابة في معرفة الصحابة: علي بن محمد الجزري ابن الأثير، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1418هـ.
- الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 14، 1999م.
- تذكرة الحفاظ: شمس الدين محمد الذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط، د ت.
- تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير، جمعية إحياء التراث الإسلامي، الكويت، ط5، 1429هـ - 2008م.
- التفسير الكبير: محمد بن عمر بن حسين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، د ت.
- جامع البيان في تفسير القرآن: محمد بن جرير الطبري، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1407هـ - 1987م.
- الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1427هـ - 2006م.
- سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 11، 1417هـ.
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، دار المعرفة، بيروت، ط8، 1422هـ.
- في ظلال القرآن: سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط7، 1391هـ.
- معجم تهذيب اللغة: محمد بن أحمد الأزهري، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1422هـ.


***

## من أعلام الحركة الفكرية العربية محمد أركون